

تأثير فضاءات الانترنت على أنساق الفعل الاجتماعي
من براديغمات الضبط إلى الأنوميا الاجتماعية

The internet space effect on social act systems
Form control paradigms to social anomia

أ.د. الفضيل رتيمي

جامعة لونييسي علي البلدية 2، الجزائر

retimi59@yahoo.fr

ط.د. حميد مهبالي*

جامعة لونييسي علي البلدية 2، الجزائر

hamidmehbali85@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/02/14 تاريخ القبول: 2023/03/30 تاريخ النشر: 2023/05/12

Abstract:

الملخص:

This paper aims primarily to spotlight the cyber reality effect on traditional social act systems and its control mechanisms, it reveals also the "Social Anomia" phenomena as a manifestation of the cyber space effect, the space that became "parallel" to physical reality.

The research effort of this paper is supported by a significant amount of a reliable field studies in different scientific research fields and disciplines, it is also committed to sociology pioneers efforts in communication domain.

This study concludes that social anomia phenomena is a manifestation of the cyber space effect on social act systems, while considering it (the social anomia) as a reality in the new network society.

Keywords: Influence, control, social action, the Internet, social anomia.

يهدف هذا العمل إلى إلقاء الضوء على تأثير الواقع الافتراضي السيبراني على أنساق الفعل الاجتماعي التقليدي وآلياته الضبطية، كما يكشف أيضاً عن ظاهرة الأنوميا الاجتماعية الناتجة عن هذا الفضاء الذي أصبح موازياً للواقع الحقيقي المحسوس.

اعتماداً منّا على مجموعة كبيرة من الدراسات الميدانية الجادة في مختلف الحقول المعرفية والعلمية، وانطلاقاً أيضاً من تنظيرات علماء الاجتماع الكبار في حقل الاتصال والإعلام، تمّ رصد مظاهر الأنوميا الاجتماعية التي مست مختلف أنماط الفعل الاجتماعي عبر الفضاء السيبراني.

توصلت الدراسة إلى أنّ الأنوميا الاجتماعية قد أضحت واقعاً حقيقياً في المجتمع الشبكي الجديد.

الكلمات المفتاحية: تأثير، ضبط، فعل اجتماعي، أنترنت، أنوميا اجتماعية.

* المؤلف المرسل

1- مقدمة

مما لا شك فيه أنَّ الفضاء السيبراني أصبح متجذراً في حياتنا، فالיום نتحدث عن عدد مستخدمي الإنترنت في العالم بحوالي 4.95 مليارات شخص، وذلك وفقاً لإحصائيات العام الجاري 2022، وهذا الرقم يُعادل تقريباً 62% من إجمالي سكان العالم، كما أنَّ هذا العدد في تزايد مستمر، إذ يوجد حوالي 257 مليون مستخدم جديد خلال العام الواحد تقريباً، ويُقدَّر معدل نمو مستخدمي الإنترنت حالياً بحسب تقارير إعلامية بحوالي 5.7%، أي ما يُعادل أكثر من 700 ألف مستخدم جديد كل يوم (وليد محمود، 01. 8. 2022 <http://aljazeera.net>).

وكي لا ننسى أيضاً يُوجد اليوم حوالي 3 مليارات شخص لا يزالون غير متصلين بالإنترنت، مع وجود أغلبية هؤلاء الأشخاص في جنوب وشرق آسيا وفي أجزاء كبيرة من إفريقيا، والاتجاهات الحديثة تشير إلى أنَّ ثلثي سكان العالم يجب أن يكونوا متصلين بالإنترنت في وقتٍ ما في النصف الثاني من عام 2023 (وليد محمود، 01. 8. 2022 <http://aljazeera.net>).

ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات هذه أدت إلى تثير آخر على مستوى الاجتماع البشري والإنساني وصفه "جان بورديار" بـ "القيامة الثقافية" (ليفي، 2018، ص10).

وذلك لأنه لم يسبق أبداً أن كانت التغيرات التقنية سريعة ومؤثرة للاستقرار على هذا النحو فقد فتحت دنيا تقنية المعلومات العوالم على مصراعيها، وبدت الإنترنت وكأنها بحرٌ مفتوحٌ، لا شواطئ ولا حواجز له، يُبحر فيه الأفراد والجماعات من مختلف أنحاء الأرض، عابرين حدود المكان والزمان (رحومة، 2005، ص68).

هذا الوضع أدَّى إلى تغييرات جذرية في الرؤية الإنسانية للحياة برمتها، بحيث تم إدماج الحركة المجتمعية في أنماطٍ فكرية وسلوكية جديدة كل الجدة، وبالتالي إلى تسارع حركة التغير الاجتماعي في مختلف مظاهره ومستوياته بشكل رهيب وغير مسبوق، عجزت عن كبح جماحه أو توجيهه والتحكم فيه كل الأنساق والضوابط والبراديجمات التقليدية والكلاسيكية الناضجة للاجتماعات البشرية والإنسانية، وذلك لأنَّ التطور التقني في مجال الإنترنت مَسَّ عَصَبَ الحياة الاجتماعية وناظمها، فأعظم شيء أضافته الإنترنت هو التفاعل بين الناس (بكار، 2017، ص09)، فالتفاعل هو في الحقيقة فعلٌ ثقافي واجتماعي وليس فعلاً تقنياً وحسب.

يطرح هذا الفهم تساؤلاً جوهرياً عن دور "التقنية" كوسيلة تفاعل وتواصل في التأثير على الأنساق والأنظمة والبراديجمات والنواظم التقليدية والواقعية؟ وهو ما يُحاول أن تُستبطنه وترصده هذه الورقة البحثية؟.

2- الإشكالية

تعتبر الظواهر الناتجة عن تكنولوجيات الإعلام والاتصال من المواضيع الأكثر تناوُلًا في العالم، لكون هذه التقنيات الأكثر استهلاكاً في العالم من أي منتج إنساني آخر، هذا من جهة ولكونها الأكثر تأثيراً على السلوك الإنساني من جهة ثانية، ولقد عالج الباحثون التأثيرات المختلفة لتكنولوجيات الاتصال الحديثة وخاصة الإنترنت بفضاءاتها المختلفة وخدماتها اللامتناهية، إذ عالجوا هذه الآثار والتأثيرات في مختلف الحقول المعرفية الإنسانية والاجتماعية والفكرية ومن منظورات مختلفة وفي سياقات ثقافية متباينة، مما سمح —وما زال — بإعادة النظر في العديد من المفاهيم والرؤى والنظريات والفرضيات والتصنيفات، مُدْعِمِينَ ذلك بالكثير من المعطيات الميدانية والدراسات الواقعية الجادة، ذلك أنَّ تكنولوجيا الإنترنت قد مَسَّت عصب الحياة

الاجتماعية وعمودها الفقري وهو التفاعل الاجتماعي، بحيث شمل هذا التأثير مختلف أنساقه وأنماطه وأشكاله ومستوياته المختلفة، فقد انتقلت أجيال ما بعد الحداثة من التفاعل عبر الفضاءات المغلقة المكتفية بنماذجها وأطرها إلى التفاعل عبر فضاءات مفتوحة على كل الاحتمالات والخيارات، الأمر الذي أدى إلى خلخلة الأنساق والنواظم والبراديجمات التقليدية، أي إلى خلق حالة من اللامعيارية أو ما يُعرف بالأنوميا الاجتماعية، ولعلَّ إشكالية هذه العمل المتواضع تتمحور حول تساؤل جوهري، يمسّ بشكل قريب ودقيق هذا الجانب ويندرج في سياقه، ويمكن صياغته في المفردات التالية:

ما مدى تأثير الواقع الافتراضي على أنماط ومستويات الفعل الاجتماعي التقليدي وآلياته الضبطية؟ وإذا كان هذا التأثير واقعاً حقيقياً فهل يُمكن الحديث عن حالة من الأنوميا الاجتماعية؟ وبالتالي ما أهم تمظهراتها؟.

3- أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف وهي على النحو التالي:

- معرفة مدى تأثير الانترنت بفضاءاتها الافتراضية على أنماط الفعل الاجتماعي التقليدي وآلياته الضبطية؛
- رصد أبرز تمظهرات الأنوميا الاجتماعية عبر الفضاء الافتراضي؛
- لفت انتباه الباحثين والدارسين من مختلف الحقول المعرفية والعلمية إلى ظاهرة الأنوميا الاجتماعية في الفضاء السيبراني من أجل إجراء المزيد من الدراسات الميدانية والمعرفية حول هذه الظاهرة.

4- الظواهر الاتصالية في سياق تاريخي

إنّ التطور المتسارع في تكنولوجيا الاتصال دفع العديد من الباحثين والمنظرين الاجتماعيين إلى إيلاء هذه الوسائل مزيداً من الاهتمام الذي تستحقه، فقد وضعتهم هذه التكنولوجيا أمام مرحلة جديدة من مراحل تطور التواصل الاجتماعي، هذه المرحلة لها أبعادها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية والسياسية المختلفة التي لا يمكن تجاهلها أو إدارة الظهور لتأثيراتها السلبية والإيجابية، ويمكن القول أنّ المحاولات الأولى لفهم ما أحدثته وسائل الاتصال الجديدة من تغييرات وتأثيرات في حياة الناس وطرائق تواصلهم وتفاعلهم، بدأت في مطلع الخمسينات من القرن المنصرم، على يد المفكرين الكنديين "هارولد إينيس" و"مارشال ماكلوهان"، ولعلَّ جهود "ماكلوهان" تلميذ "إينيس" تبقى الأبرز والأوضح في رصد الآثار الاجتماعية لوسائل التواصل الجديدة (ساري، 2015، ص78).

فقد اختار "ماكلوهان" مصطلح "القرية الكونية" في التعبير عن هذه الآثار، ثم توالى جهود الباحثين في هذه الحقول على يد "دانييل بيل" وجهوده الجبارة في تحليل التأثيرات الاجتماعية التي يتركها هذا النوع من الاتصال في المجتمع، أمّا "يورغن هابرماس" فيعد من أشهر علماء الاجتماع الذين أسهموا في تحليل الدور الذي يقوم به الاتصال في المجتمعات الحديثة، ولا أظن أنّ المفاهيم التي رسّخها في هذه الحقول تخفى على أحد، وخاصة مفهوم "المجال العام" أو "الفضاء العام"، أمّا "جان بورديار" فهو يُعد من أبرز مفكري ما بعد الحداثة، ومن أبرز المنظرين لتأثيرات التكنولوجيات الحديثة وخاصة الانترنت على مجتمعات ما بعد الحداثة، يعتقد "بورديار" أنّ وسائل الاتصال الحديثة وتكنولوجيات الاتصال تختلف اختلافاً واضحاً في تأثيراتها على الأفراد في المجتمعات المعاصرة، وفي عمق نتائجها عليهم عن أية منتجات تقنية أخرى، ويرى أنّ التواصل

عبر الوسائط بات يتغلغل في تفاصيل حياتنا اليومية ويُحاصرنا في كل مكان، فقد خلق عالماً من "الواقع المفرط"، فوسائل الاتصال كما يقول لا تعرض لنا العالم الذي نعيش فيه أو تعكسه أو تُمثله، بل أصبحت تحدّد هذا العالم "وتعيد تعريفه"، إذ لم يعد الواقع الحقيقي موجوداً بالفعل، فقد استُعيض عنه بعالم آخر (ساري، 2015، ص84)، أطلق عليه المنظر الكبير وعالم الاجتماع الإسباني الشهير "مانويل كاستلز" اسم "المجتمع الشبكي الجديد"، فقد بلّورَ "كاستلز" نظرية اجتماعية- إعلامية متماسكة في تحليل الأبعاد الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية المختلفة التي أوجدتها هذه الوسائل في المجتمعات المعاصرة، وذلك في عمله الضخم المسمى "العصر المعلوماتي: الاقتصاد والمجتمع والثقافة"، حيث خصص هذا العمل الذي يتكون من ثلاث مجلدات لفهم "مجتمع المعلومات" أو "المجتمع الشبكي الجديد" بأبعاده المختلفة، مُبيّناً الدور الذي قامت به الأنترنت في ولوج البشرية عهداً جديداً غير مسبوق هو "عصر المعلومات" (ساري، 2015، ص85) عصرٌ ماتت فيه المسافات كما تُؤكّد ذلك الباحثة "فرانيسيس كيرنكروس" في كتابها الموسوم "موت المسافات".

كل هذه التحليلات والتطبيقات السابقة تتفق على بروز وتشكل عالم افتراضي مواز للعالم الحقيقي، ساهم بطريقة أو بأخرى في إعادة صياغة منطق التواصل والعلاقات الإنسانية وأنظمة المعنى والتأويل والإدراك، فبعدما كان يتم التواصل والتفاعل وتطبيع الذات والأفراد عبر أنساق اجتماعية وفضاءات مُغلقة وناجزة، فقد تُعوّل المكان كما يرى "عبد الرحمن عزّي" وأُمسى الفرد على حد قول "قرين ورد" بدون مكان، فالإنسان وهو متمدّد على سريره يستطيع أن يصل ويجول في معظم بلدان العالم (لعقاب، 2013، ص33) طاوياً للجغرافيا ومُبجراً في فضاءات مفتوحة وبلا نهايات.

5- انهيار الجغرافيا من الفضاءات المغلقة إلى الفضاءات المفتوحة

يرى "عبد الرحمن عزّي" أنّ عامل المكان "المُعاش" قد تراجع كمتغيّر أساسي في تأسيس ذات الفرد وانتمائه وشخصيته في المجتمع المُعاصر إلى حدٍ كبير، فوسائل الإعلام وخاصة الأنترنت تُقلّعه من هذا المكان وتنقله إلى المكان الرمزي بصفة مستمرة، وبفضي الإنسان المُعاصر جُلّ وقته مع هذه الوسائل، الشيء الذي يُؤلّد ما سمّاه "ألّفن توف" بانهيار الجغرافيا (عزي، 2009، ص55).

إزاحة المكان بمفهومه التقليدي انعكس بشكل جذري على السلوك الإنساني والفعل الاجتماعي، فبعدما كانت الممارسات والسلوكيات والأفعال والتربية وتطبيع الذات وتنشئتها اجتماعياً تتم في بيئاتٍ مغلقةٍ مُكتفيةٍ بعقائدها ومفاهيمها وعاداتها ونماذجها، تُغيّر كل شيء اليوم، حيث إنّ جنون التقنية، وسُعارَ التطوير فيها لم يترك لنا أي شيءٍ نبني عليه، أو نتمسك به (بكار، 2017، ص03)، فقد صار الفعل الاجتماعي بتمظهراته المختلفة وأشكاله وأنواعه ومستوياته المتعددة يتم في فضاءٍ مفتوح على كل العالم، حيث تحولت وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي من وسائط لنقل الخبر والمعلومة بين الناس إلى إحدى آليات التنشئة الاجتماعية وهندسة الجمهور (فهيم، 2005، ص68)، الأمر الذي أدّى لتدمير معنى وحدة الفرد تماماً وتكسير الهويات الثقافية الصلبة (عبد الغني، 2019، ص193) والأنظمة المغلقة والبراديجمات التقليدية وضوابط وقواعد السلوك والفعل الاجتماعي، فالفعل الاجتماعي الذي كان يتم في المجتمعات المحلية الواقعية في حيزٍ مجالي محدودٍ ومكان معلوم الأبعاد بحيث تحكمه وتؤطره رموزٌ اجتماعية وحضارية وقواعد سلوكية وآليات ضبطية ومعيارية واضحة وناجزة، يخضع لها الشخص في عملية تفاعله وتواصله مع الذات الأخرى التي تقاسمه نفس المكان والجغرافيا ونفس

القيم والرموز والمعايير، وهذه القواعد والمعايير والرموز والضوابط ليست وليدة لحظة وساعة التفاعل، بل هي قواعد يتشربها ويتمثلها الفرد من خلال عمليتي التنشئة الاجتماعية والتطبيع الإنساني على مراحل وفي إطار الجماعات الأولية والثانوية والمرجعية التي يُولد وينشأ ويتعرع فيها الأفراد، هذه الجماعات والمرجعيات الوسيطة كما يرى عالم الاجتماع "شارلز كولي" هي التي تربط الفرد بالمجتمع، حيث تنمو في أطرها المثل الاجتماعية لدى الفرد وتحقق طبيعته الإنسانية، إذن فالذات والعقل والطباع والاتجاهات والميولات والوعي لا تولد مع الإنسان، وإنما يتم تشكيلها ونموها من خلال عملية التفاعل مع الآخرين، ويشمل نمو الذات وعي الإنسان بذاته ووعيه بذوات الآخرين، ثم وعياً اجتماعياً (عيسى عثمان، 2008، ص 117).

تمثل الأفراد لهذه الضوابط والقواعد والنواظم الاجتماعية هي التي تدفعهم إلى الامتثال لضغوط الجماعة التي ينتمون إليها، بل حتى المخلوقات غير البشرية يحصل عندها مثل هذا الامتثال المتأاتي من ضغوط القطيع الذي يعيش في وسطه، فهي إذن حالة طبيعية تكشف عن قوة تأثير الجماعة وضغوطها على أفرادها وأعضائها في تحقيق وحدتها وترابطها مع عناصرها، إن متطلبات الحياة الجمعية والاجتماعية هو تأكيدها على "الامتثال"، الذي يتطلب الالتزام بمعايير وقواعد تضعها الجماعة الاجتماعية من أجل وحدتها ووجود بقائها ووظيفتها وأهدافها، وعادة ما تمثل هذه المعايير والقواعد ضغوطاً على الرغائب الفردية لتؤسس قواسم مشتركة بين أعضاء الجماعة التي وضعتها (معن خليل، 2005، ص 15).

تحتوي هذه "البنية المعرفية المعيارية" على ما يُسميها البعض أنماط أو نماذج ثقافية تشغل كدليل ومُرشد لوجهة الفعل ومسارته، وتصبح بالتالي بمنزلة "العناصر البانية للهوية" الاجتماعية والثقافية التي تميز الحياة الثقافية الجمعية المشتركة والسائدة في جماعة معينة (عبد الغني، 2019، ص 112).

آليات الضبط والتنشئة هذه تكون ذات فائدة إيجابية للأشخاص أكثر من كونها سلبية وإن نتائج وظائفها الضبطية والتقويمية أكثر جدوى من تقييداتها للحرية الذاتية (معن خليل، 2005، ص 132). فقد أوضحت أعمال "فرويد" وتلميذه "ميد" و"بياجي" الأهمية الفائقة لعمليات التنشئة الاجتماعية التي من طريقها تُستبطنُ المعايير الاجتماعية وتُتمثل وتندمج في الشخصية النفسية وتُصبح جزءاً لا يتجزأ منها من طريق التربية والامتثال للقواعد والمعايير الاجتماعية، فمن خلال تكامل ميكانيزمات "الضبط الاجتماعي" مع ديناميات "التنشئة الاجتماعية" تكتمل عملية استبطان المعايير والقواعد والعادات والتقاليد والسلوكيات، وتُصبح بالتالي جزءاً لا يتجزأ من شخصية الفرد وتعريفه لذاته في مقابل "الأخر"، إنها تعمل كـ "هابيتوس" حامل لقيم فكرية ونماذج إرشادية متناغمة تعمل على أن يتطابق السلوك الاجتماعي مع الثقافة السائدة ونماذجها كبنية معرفية معيارية محددة للهوية (عبد الغني، 2019، ص 113).

هذه البراديجمات ليست في حالة ستاتيكية وثابتة تماماً كما قد يتوهم البعض أو يُخَيَّل إليه، بل هي حالة دينامية وفي صيرورة لكنها متدرجة وبشكل بطيء تسمح للأفراد باستيعاب وتمثل الأنماط والاتجاهات والمعايير الجديدة، هذا كله جعل الأفراد في تواءم دائم مع أنفسهم ومع المجتمع، الأمر هذا يختلف تماماً عن زمن ما بعد الحداثة وعصر الشبكات التقنية حيث الأفراد في حالة شواش وعماء تام خلق عندهم نوع من "الأنوميا الاجتماعية" هذه الحالة التي رصدها علماء الاجتماع من أمثال "إيميل دوركايم" في أزمنة التحولات الكبرى.

6- المجتمع السيبراني من براديغمات الضبط إلى الأنوميا الاجتماعية

ابتكر "دوركايم" مفهوم "الأنوميا" (L'anomie) الناتج عن فقدان القيم والمعايير الاجتماعية أو غيابها والمُفضية بالتالي إلى التفكك الاجتماعي. وقد تُرجم لفظ "الأنوميا" في العربية إلى عدة مصطلحات مختلفة، فالأنوميا عند "خليل أحمد خليل" هي "الخلخلة" (خليل، 1984، ص66)، وهي عند "سليم حداد" "الارتباك" (بودون وبوريلو، 1986، ص25)، أما "أنسام الأسعد" فيترجمها "بالفوضوية" (جيل فيريول، 2011، ص32)، وإذا أتينا إلى المنظمة العربية للترجمة نجد أنها تعني "الفوضوية" (مجموعة مؤلفين، ص132)

وُترجم أيضا بما يعني "اللامعيارية" ويعني افتقار منظومة السلوك إلى القاعدة التي يمكن بها وبناءً عليها قياس وتمييز السلوك السوي من السلوك غير السوي، في حالة اللامعيارية تصاب القيم والأعراف والمعتقدات والقوانين في المجتمع بالضعف والوهن، فيدخل الفرد والمجتمع في أزمة هوية وفي هذه المرحلة الانتقالية التي ترافق الفرد من بنية إلى بنية يصاب المجتمع بحالة من الفوضى واللامعيارية ما يجعل الأفراد حائرين تتجاذبهم أنظمة متعارضة من القيم (عبد الغني، 2019، ص117)

فالأنوميا هو نوعٌ من التحلل الاجتماعي والتفكك المعياري، تبرز كما رأى "دوركايم" نتيجة التغيرات الاجتماعية السريعة، فيفعل التطور الرهيب في تقنيات تكنولوجيا الاتصال انتقلت ممارسات الفرد من الإطار الإنساني إلى الإطار الافتراضي السيبراني، ومن التمثل الطبيعي الإنساني إلى التمثل الآلي والرقمي والرمزي، ولعلنا عبر المفردات الآتية سُجِّلَ أكثر وبشكل واضح ومُحدد الأنوميا الاجتماعية وتمظهراتها عبر الفضاءات الافتراضية والسيبرانية.

1-6 - الفضاء السيبراني هجرة افتراضية ومنفى اختياري

يقدم التحليل ما بعد الحداثي لتكنولوجيا الواقع الافتراضي وتطبيقاتها الاتصالية، رؤية نقدية لمناخ ثقافي تتعمق فيه الذاتية المعتمدة على الخيال التي تساعد على تفكك المجتمع وتشطيه من ناحية، وعلى نفي العقلانية والإعلاء من شأن التفسير الغريزي للحياة من ناحية أخرى (محمد حسام الدين، 2010، ص104).

وهذا ما ذهب إليه "أدورنو" و"هوركهايمر" اللذان شخّصا على المنوال ذاته أمراض المجتمعات المعاصرة وظواهر التشرد الاجتماعي، لقد ترك الناس لحالهم من دون عناية فأصبحوا غرباء عن ذاتهم، فباغترابهم وفقدانهم جذورهم الاجتماعية وانفصالهم عن جماعات انتمائهم أصبحوا عرضة للتحلل (ميغري، 2018، ص133-ص134)، فانغراس الأفراد في المجتمع الشبكي السيبراني جعل الكثير منهم يهجرون الواقع الحقيقي غير أبهين بما يجري فيه، فلا اهتمام لهم لا بالشأن السياسي ولا بالشأن الاجتماعي، حيث أمسى الفضاء السيبراني عبارة عن منفى يختاره الأفراد بمحض إرادتهم ويستعيضون به عن الواقع الحقيقي المُثخَّم بالأزمات الوجودية.

وفي هذا المضمار قد توصلت العديد من الدراسات في حقول الاتصال إلى وجود تأثيرات سلبية لشبكات التواصل الاجتماعي على نسق التفاعل الاجتماعي خاصة بين أفراد العائلة (مثل الدراسة التي أجراها: حلمي ساري، تأثيرات الاتصال عبر الأنترنت على العلاقات الاجتماعية، دراسة ميدانية في المجتمع القطري، مجلة دمشق، المجلد 24، العدد الأول-الثاني، 2008)

فتزايد الهجرة الافتراضية نحو المجتمع الشبكي الجديد وتراجع عمليات التواصل المباشر بين الأفراد أدّى إلى إعادة التشكيل الاجتماعي وذلك بخلخلة أنساق التنشئة الكلاسيكية وتفجير وكالات التطبيع الاجتماعي والقضاء على قيم الجمعة، حالة التباعد هذه أدّت إلى شعور الفرد بـ

"الاغتراب" النفسي والاجتماعي عن ذاته وعن المجموعة التي ينتمي لها(الشيباني، 2022.02.11: <http://tanwair.com>).

2-6- الفضاء السيبراني وتفكيك أنظمة المعنى والإدراك

وفي ذات السياق يمكن القول أنه لعل أحد أهم مظهرات الأنوميا الاجتماعية عبر الفضاءات الافتراضية هو ظاهرة الشواش والعماء والفوضى الذي ألحقته الإنترنت ومنظوماتها بأنظمة المعنى والإدراك لدى الفاعلين الاجتماعيين، فالتواصل والتفاعل باعتبارهما نشاطان اجتماعيان يرتكزان على ميكانيزم يتبع نظاماً فوقياً وقبلياً يتجاوز التواصل الفردي، فإذا تحدث شخصان بلغة ما فإيهما يتشاركان في نظام كان موجوداً قبلهما وعليهما أن يتبعاه ويلتزمان به، بحيث أن عملية نقل الرسائل تكون مدمجة ضمن قالب كلي أوسع يحمل البعد الثقافي للتواصل(قويدري، 2019، ص19).

هذه النظام القبلي يُعرف في حقل اللسانيات بنظام العلامات وهو أساس عملية التفاعل والتبادل والتخاطب الإنساني، وقد بذل عالم اللسانيات الشهير "دي سوسير" جهوداً مُظنية وجبارة في بيانه وتوضيحه عبر نظريته المعروفة بـ "نظرية العلامات" وإذا أردنا توظيف نظريته هذه في مقارنة العالم الافتراضي ومنصات التواصل الرقمي، يُمكننا القول أنهما يُقدّمان عالماً من الدوال المتحررة من المدلول، يُشير الدال عند "دي سوسير" إلى الشكل اللغوي أو الرمزي، أما المدلول، فيشير إلى المحتوى الواقعي لها، أي ما تُجسده الكلمة أو الصورة أو الشكل في الواقع أو ما يُثيره ذلك من معنى لدى المتلقي، وعند "دي سوسير" ثمة علاقة وثيقة بين الدال والمدلول، بحيث إذا حضر الدال حَضَرَ المدلول، وإذا طبقنا مفهوم الدال والمدلول على الواقع الافتراضي نستطيع القول إن مكوناته الشكلية تُكافئ الدال في حين أن المحتوى الموضوعي لها أي الحدث أو الشيء الذي تُجسده هو بمثابة المدلول، غير أن مكونات الواقع الافتراضي كما يظهر لنا لا يُقدّم الواقع كما هو، ولا حتى صورة عنه، بل يصطنع دوالاً بلا مرجعية واقعية لها، وبالتالي تُصبح مرجعية نفسها، هذا بينما تفترض الدلالة (المعنى) وجود علاقة بين دال ومدلول، بين الرمز وما يرمز إليه، وعندما تكتفي العلامة بذاتها وتكون مرجعية نفسها تُصبح دلالتها خارج نطاق الواقع الذي نعرفه، وبذلك يختفي الواقع، ويظهر الافتراضي الذي لا يُحيل إلى شيء خارجه فهو لا يُعيد تمثيل العالم الخارجي، بل يقطع صلته به وهذا هو مأزق التمثيل في ظل العالم الرقمي ومنصات التواصل الاجتماعي، إنه مرجعية ذاته من غير إحالة إلى ما يُمثله أو يعبر عنه(بدر الدين، 2022.07.21: <http://mana.net>).

هذا الوضع أدى إلى حالة من الشواش والعماء لدى أفراد المجتمع الشبكي لم يسبق لها مثيل، وذلك بفقدانهم لبوصلة أنظمة المعنى والإدراك، وهي حالة مشابهة لبعض الظواهر الفيزيائية والرياضية والتي عبرت عنها أحدث النظريات الرياضية والفيزيائية عُرفت بـ "نظرية فوضى الكون" أو "نظرية الشواش" والتي تتعامل مع موضوع الجمل المتحركة (الدينامية) اللاخطية التي تُبدي نوعاً من السلوك العشوائي يُعرَف بالشواش.

3-6- الفضاء السيبراني هدم الهويات الصلبة وبناء الهويات الناعمة والرخوة

كذلك من المؤشرات التي تشي وتكشف وتؤشر على ظاهرة الأنوميا الاجتماعية عبر الفضاءات الافتراضية هو ما تتعرض له الهويات المختلفة من هدم ونقض، ويمكن تعريف الهوية بأنها: (مجموعة الخصائص والميزات العقيدية والأخلاقية والثقافية والرمزية التي ينفرد بها شعبٌ من الشعوب وأمة من الأمم)، ونسيج الهوية نسيجٌ معقدٌ جداً يُستمد من عقيدة الشعب وقيمه الكبرى،

وذاكرته التاريخية وعيقرية المكان الذي يعيش فيه، وهي كالصحة لا يشعر بها الناس إلا إذا كانت مهددة، وإلا من خلال المقارنة مع هوية أو هويات أخرى (بكار، العولمة، 2002، ص84).

فقبل تسارع التغيرات وحدث ثورة الاتصالات الحديثة، كان بناء الهويات وتشكل الوعي يتمان دائماً في فضاء داخلي، ومن خلال رموز ومعايير هذا الفضاء المغلق يتعامل الأفراد مع الفضاء الخارجي، وقد كانت الحدود بين الذات والآخر واضحة، أما الآن فقد اندرست واختفت الحدود وزالت السدود، وصار التعرف على (الأنا) و(الآخر) أمراً معقداً للغاية (بكار، 2002، ص86، 87)، ذلك أن الذات الخاصة للمجتمع باتت تُسلب من ذاته، وتتحول إلى ذات كونية، وبالتالي يخسر المجتمع مواطنيه الحقيقيين لصالح مجتمع آخر أكثر اتساعاً ورحابة (منصوري، 2014، ص93)، وبهذا ما عادت الهوية أمراً ثابتاً طبيعياً ذا عناصر مستقرة، بل أصبحت في عصر ما بعد الحداثة مسألة مصطنعة ومرنة وعارضة وحالة أوجه ومتحولة.

وفي هذا توصلت "شيري توركل" في كتابها "الحياة على الشاشة" حين درست المجال الاجتماعي للبيئات الإلكترونية التي يستعملها كثير من المستخدمين إلى أن "الحواسيب لا تغير النمط السلوكي فحسب بل تغير ذواتنا أيضاً" فعلى شبكة الأنترنت كما تقول "توركل": (تبنى الذات وتبنى قواعد التفاعل الاجتماعي، فحين نستخدم شبكة الأنترنت يعني أننا "نبندع ذواتنا على نحو متواصل... فأنت ما تزعم أنك عليه. وهويتك على الحاسوب هي حصيلة حضورك المشتت. ذلك أن هويتك شديدة السيولة والتعدد من ثبات فردية وموثوقية، فإن الهوية ذو حدود فضفاضة"، خلافاً لما كانت عليه الهوية من ثبات وفردية وموثوقية، فإن الهوية على الأنترنت، كما تراها "توركل" متعددة وقابلة للاصطناع والمراجعة مراراً وتكراراً (عبد الغني، 2019، ص209).

فالفضاء الافتراضي هو حاجب للذات وللآخر وهو نوع من الأنوميا تقف الذوات أمامه عاجزة عن الفعل ورد الفعل، فبعدما مثل الجسد البشري أساساً ثابتاً نسبياً لتحديد الهوية في المجتمعات الواقعية فإن انهيار الجغرافيا والاتصال الشبكي المجسد عبر الفضاء السيبراني قلل من أهمية الجسد كسمة ملازمة للهوية في التفاعل الاجتماعي، الأمر الذي يُقلل من دور المظهر الخارجي والسلوك في رسم ملامح الهوية وبناء المواقف المسبقة اتجاه الآخر، خلافاً لما كان سائداً سابقاً، ذلك أن محددات الهوية مثل الجنس ولون البشرة وشكل الجسم والسن واللباس لا يمكن إدراكها ما لم يتطوع الآخر بكشفها، حتى حينها لا يمكن الوثوق بما يُخبره لنا الآخرون من معلومات (عبد الغني، 2019، ص209).

وحتى وإن تمّ الكشف ورفع الحجب فإنه صار بالإمكان بما تُتيحه منصات التواصل الاجتماعي للمستخدمين بإنشاء نسخ مثالية مزيفة عن أنفسهم، وهذا من شأنه أن يخلق تجربة اجتماعية ومظهراً جسدياً بمثابة تمثيل لإمكانات غير محققة وغالباً ما تكون غير قابلة للتحقيق، وفي هذا المضمار قد رصدت بعض الدراسات الحديثة تأثير مرشحات "السناب شات" snapchat على صورة أجساد الشبابات وتصورات الجمال لديهم، حيث تعمل هذه المرشحات على تغيير المظهر بمهارة من تنعيم البشرة، إلى التحريف التام للشكل من خلال ملء الشفاه وتغيير لون العين، أدى هذا إلى نشأة ظاهرة معروفة حيث يسعى عدد متزايد من الشباب وخاصة الشبابات إلى إجراء جراحة تجميلية لمواءمة مظهرهم الجسدي مع المظهر الذي يحققونه من خلال "فلتر السناب شات"، وإذا لم يكن المرء ممتلكاً القدرة على إجراء هذا التحول ستكون النتيجة بالتأكيد عدم الرضا التام عن الذات، وربما حالة من العزلة وعدم الرغبة في الظهور الاجتماعي، وإلى ذلك فإن الأفراد في الغالب يقومون بنشر الصور "الأفضل" فقط على منصات التواصل، مما يؤدي إلى إنشاء شريط مختزل يُسلط الضوء على التجربة الإيجابية فقط واستبعاد الأخرى التي ربما تكون أكثر واقعية (بدر الدين، 2022.07.21 <http://mana.net>).

إنها حالة من التفكك والاختزال والحجب الهوياتي الذي بدوره يُصبح لا معنىً لعمليتي التواصل والتفاعل الاجتماعيين.

4-6- الفضاء السيبراني تميع القيم وتصدها

لعلنا نختم بأحد المفردات الهامة التي تَشِي وتكشف عن مدى تغلغل الأنوميا الاجتماعية كظاهرة ارتبطت بالتحديث على حد قول: "دوركايم" وبَدَتْ أكثر حضوراً وبروزاً مع المجتمع الشبكي، وهي خلخلة القيم وتميعها، فالقيمة هي إحدى عناصر الثقافة في المجتمع، وتُشكّل جزءاً مهماً منها في مرحلة تاريخية معينة، وتُعبّر عن المرغوب فيه اجتماعياً، وتمثل بذلك المبادئ والأحكام والاختيارات التي تحمل معان اجتماعية خلال تجربة الإنسان (السويدي، 1991، ص72).

فالقيمة إذن هي بمثابة موجهات بين ما يرغب فيه المجتمع ما يرفضه، وهي تُوجّه نشاط الأفراد بطريقة غامضة، من خلال تزويدهم بمجموعة من المرجعيات المثالية يقتدون بها، وتمثل في الوقت نفسه رموزاً لتحقيق الذات، التي تُساعدهم في تحديد مواقعهم ومواقع الآخرين من تلك القدوة (بودون بوريكو، ص94)، ولعل الدكتور "عبد الرحمن عزّى" عبر تنظيراته القيمة قد استطاع إلى حدٍّ بعيدٍ في نظريته (الحمية القيمة) الكشف عن الشروخ البنيوية والتصدعات القيمة التي ألحقتها تكنولوجيات الاتصال والإعلام بالأنساق القيمة والبنى الثقافية الكامنة غير الشعورية والتي تُشكل أرضية أي بناء ثقافي وحضاري، وبهذا تصبح الفضاءات الافتراضية كفضاء مُعولم عبارة عن "اغتصاب ثقافي وعدواني".

- الاستنتاج العام للدراسة

نستنتج من خلال تعرضنا لظاهرة الأنوميا الاجتماعية عبر الفضاء الافتراضي ما يلي:

- أضحت الأنوميا الاجتماعية واقعاً حقيقياً يعيشه كل من يلج هذا الفضاء السيبراني؛
- الفعل الاجتماعي ليس وليد لحظة التفاعل، بل يستند إلى إطار اجتماعي وسياق ثقافي يجعل منه فعلاً عقلياً، هذا ما هو سائد في الواقع الحقيقي، لكن هذا الفعل نفسه يُصبح في الفضاء الافتراضي بلا مرجعية توجهه ولا سياق يُؤطره، أي يصير فعلاً لامتيازياً مفتوحاً على كل الاحتمالات؛
- حالة الأنوميا الاجتماعية تبرز أكثر في زمن التحولات الكبرى أو التغيرات السريعة، وهو عينُ الأمر الذي يحصل ويحدث الآن، فالتطورات التقنية السريعة والكبيرة أكثر بروزاً ووضوحاً، بحيث لم تترك فرصة للأفراد والمجتمعات باستيعاب مخرجات عملية التغير الاجتماعي الكبير؛
- يظهر أنّ التفكك السريع الذي مسّ البراديجمات والنواظم والأنساق التقليدية من جهة، والتطورات التقنية السريعة من جهة أخرى، جعلاً من الأنوميا الاجتماعية حالة دائمة وليست انتقالية وهذا ما يُميّز عصر ما بعد الحداثة عن العصور السابقة؛
- الفضاء الافتراضي صار واقعاً مُوازيًا ومنافسًا للواقع الحقيقي، وهو الأمر الذي وضع الأفراد في دوامة من التجاذبات والتداخلات، وهذا بدوره يرسخ حالة الأنوميا الاجتماعية ويُعمّقها أكثر، إن لم نقل يُديمها.

- الخاتمة

لا تهدف هذه الورقة إلى رصد كل مظهرات الأنوميا الاجتماعية في المجتمع الجديد (الفضاء السيبراني)، بقدر ما تهدف للفت الانتباه لمخرجات هذا "الواقع المفرط" على حد توصيف "جان بورديار"، هذا الواقع الذي أضحي في لمح بصر واقعاً حقيقياً وموازياً ومنافساً إن لم نقل لاغياً ومُزجياً ونافياً للواقع الحقيقي، كما تهدف هذه الورقة أيضاً إلى طرح المزيد من الأسئلة حول الفضاء الرمزي الجديد، وتحفيز الفكر والنظر من أجل اجتراح المزيد من المفاهيم والرؤى، وإجراء المزيد من الأبحاث والدراسات في الحقول المختلفة القادرة على متابعة وملاحقة التغيرات النفسية الجذرية والراديكالية -إن صح التعبير- التي تحدث وتحصل على كل المستويات والأبعاد.

وتركيزنا على الجانب الكوارثي للفضاء السيبراني كما يُلمح من بداية المقال، لا يعني بتاتا عدم إدراكنا للفتوحات الكبرى، والجوانب الواعدة التي أتاحها وسمحت بها تكنولوجيا الاتصال الحديثة وخاصة الأنترنت بتشبيكاتها المختلفة، كما لا يعني ذلك إطلاقاً أن الواقع الحقيقي والمجتمعات المحلية والتقليدية جمهوريات فاضلة ومثالية، فكل نظام وفضاء ونسق أزماته وكوارثه ومآزقه الوجودية، كما له فتوحاته الواعدة وعوائده الوظيفية.

- قائمة المراجع

- محمود خالد وليد. (01. 8. 2022). الفضاء السيبراني .. تهديدات وفرص تم استرجاعها في تاريخ: 2023/01/28 الرابط <http://aljazeera.net>.
- ليفي بيبير. (2018). *عالمنا الافتراضي .. ما هو؟ وما علاقته بالواقع*، ترجمة: رياض الكحال، المنامة، هيئة البحرين للثقافة والآثار.
- رحومة علي محمد. (2005). *الأنترنت والمنظومة التكنو-اجتماعية*، بيروت: مركز دراسات الوحدة العرب.
- عبد الكريم بكار. (2017). *أولادنا ووسائل التواصل الاجتماعي*، ط1، الرياض: دار وجوه للنشر والتوزيع.
- ساري حلمي. (2015). *التواصل الاجتماعي*، عمان: كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- لعقاب محمد. (2013). *المواطن الرقمي*، ط2، الجزائر: دار هومة.
- عزّي عبد الرحمان. (2009). *الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية*، الامارات: الدار للنشر والتوزيع.
- فهمي أحمد. (2005). *هندسة الجمهور. كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات*، الرياض: مركز البيان للبحوث والدراسات.
- عماد عبد الغني. (2019). *سوسيولوجيا الهوية، جدليات الوعي والتفكك وإعادة البناء*، ط2، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- عثمان ابراهيم عيسى. (2008). *النظرية المعاصرة في علم الاجتماع*، ط1، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- عمر معن خليل. (2005). *الضبط الاجتماعي*، ط1، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- عمر معن خليل. (2005). *البناء الاجتماعي أنساقه ونظمه*، ط1، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع.
- خليل أحمد خليل. (1984). *المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع*، بيروت: دار الحداثة.
- بودون وبوريلو. (1986). *المعجم النقدي لعلم الاجتماع*، ترجمة: سليم حداد، بيروت.

- فيريول جيل (2011). معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة: أنسام الأسعد، بيروت: مكتبة الها.
- مجموعة مؤلفين، مشروع المصطلحات الخاصة بالمنظمة العربية للترجمة، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- إسماعيل محمد حسام الدين (2010). الصورة والجسد دراسات نقدية في الإعلام المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- ميغري اريك (2018). سوسيولوجيا الاتصال والميديا، ترجمة: نصر الدين لعياضي، المنامة: هيئة البحرين للثقافة والآثار.
- ساري حلمي (2008). تأثيرات الاتصال عبر الأنترنت على العلاقات الاجتماعية دراسة ميدانية في المجتمع القطري، مجلة دمشق، 24(1).
- الشيباني مصباح (2022.02.11). الثورة السيبرانية والأنوميا الاجتماعية: أي علاقة؟ تم استرجاعها في تاريخ: 2023/01/28، الرابط: <http://tanwair.com>.
- قويدري هاجر (2019). البيئة الرقمية وعلوم الإعلام والاتصال، تلمسان، المنطلق النظري والتأسيس المنهج، النشر الجامعي الجديد.
- مصطفى بدر الدين (2022.07.21). الاغتراب المعرف الوجودي في ظل مواقع التواصل الاجتماعي، تم استرجاعها في تاريخ: 2023/01/28، الرابط: <http://mana.ned>.
- بكار عبد الكريم (2002). العولمة طبيعتها، وسائلها: تحدياتها التعامل معها، عمان: دار الإعلام للنشر والتوزيع.
- منصوري نديم (2014). سوسيولوجيا الأنترنت، بيروت: منتدى المعارف.
- السويدي محمد (1991). مفاهيم علم النقدي علم الاجتماعي الثقافي ومصطلحاته، ط1، الجزائر: المؤسسة الوطنية للجزائر.
- بودون بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة: سليم حداد، ط1، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- عبد الغني عماد (2016). سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات... من الحداثة إلى العولمة، ط3، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.